الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

إرتقاء الإنسان

بين منطق القرآن وفرضيات العلماء

الحلقة الأولى

أول ما يجدر بنا تقريره ونحن نعقد مقارنة بين منطق القرآن وفرضيات كتاب " ارتقاء الإنسان " هو أن القرآن لا يعرض الأفكار والتعاليم على الطريقة التي تعرض بها هذه وتلك في الكتب العصرية . إن له أسلوبه الخاص الذي يقرر به الحقائق تارة من خلال الوعظ وتارة أخرى من خلال القصة ومرة ثالثة في أثناء محاوراته للمؤمنين وغير المؤمنين أو في أثناء خطابه للرسول صلى الله عليه وسلم .

عنوة على ذلك ، يحفز الفكر الإنساني إلى التأمل في المخلوقات بالطريقة التي توقظ فيه فطرته في الفهم والإستيعاب. وهو تارة أخرى يلمح إلى بعض الحقائق من خلال القصة . وهو مرة ثالثة يطرح تعاليمه وأوامره ونواهيه بصورة مباشرة . كل ذلك يحدث في نسق خاص يجتمع فيه المنطق النظري وحوافز التفكير التطبيقي ، وتغذية القيم الخلقية مما يدل إلى أن كتاب الله يهدف إلى تقرير حقيقة معرفية أساسية هي أن الوجود وحدة متكاملة لا ينفصل فيها الفكر النظري عن مناهج الفكر العلمي وعن القيم الخلقية مصادر القوى الروحية التي هي حصيلة نفخة من روح الله.

وهذا يعني ، كما قررنا في مقالات سابقة ، أن المعرفة في نظر القرآن هي حصيلة جملة من المناهج والمصادر فيها للمنطق النظري دور كامل وللمنطق الوصفي الواقعي دور مثله ، وللتأمل في الذات دور ثالث ولمصادر الوحي الخاصة ببعض المعلومات المغيبة دور رابع . انها وحدة متكاملة الإجراء.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

****

أما وقد قررنا هذه الملاحظات التي تعرض نفسها على قارىء القرآن المتصف بالوعي والمتميز بالقدرة على التدبر والشمول في التفكير فاننا سنبحث في كتاب الله عن جواب للسؤال الذي طرحه الدكتور جاكوب برونوفسكي في كتابه " الارتقاء الإنساني " وخلاصة هذا السؤال قوله كما جاء في ص (١٤) : لماذا بدأ التطور الحضاري الذي جعل الإنسان سيداً على الأرض ، منذ فترة قريبة نسبياً ولم يبدأ قبل ذلك ؟

لنقرأ معاً قصة خلق آدم عليه السلام . يقول الله عز وجل ابتداء من الآية (٣٠) في سورة البقرة : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون – وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين – قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم –قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون – وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ".

****

ماذا نفهم من هذه القصة القرآنية ؟

نعتقد أنها قد أجابت عن أسئلة طالما رددها الانسان عبر العصور دون أن يوفق إلى إجابات عنها مقنعة . ولذلك فهو بسبب من عجزه ، وتحت تأثير الظروف النفسية والسياسية والاجتماعية . التي يتعرض لها ، يتخيل اجابات تتفق مع هذه الضغوط . ولما كانت هذه الضغوط موضع تغيرات مستمرة فإن تخيلاته النابعة منها والمتأثرة بها تكون موضع مثل هذه التغيرات.

والجدير بالذكر أن طراز التفكير المهيمن في عالم اليوم هو الطراز القادم من مجتمعات غربية لا تجد في غير الفرضيات الموصولة بالكشوف العلمية المادية وسيلة لإعلان ماتسميه حقائق فكرية أو نظريات فلسفية .

وتاريخ المجتمعات الغربية يتصف بما يلي :

١) أن التعامل مع الطبيعة والحياة بصورة مباشرة هو المصدر الوحيد أو الأساسي للمعرفة.

٢) أن ما يسمى الفكر الديني عند هذه المجتمعات هو حصيلة عقائد جامدة غير عقلية ولا منطقية .

٣) أن هذا الفكر الديني لا يصدق وصفه على التراث الكنسي الغربي وحسب بل يصدق على كل ما يسمى دينا في العالم .

٤) التعامل مع الأكوان والطبيعة والأحياء على أنها حصيلة نظم صنعتها الصدفة أو عوامل مجهولة ولذلك فهي بسبب من تعذر التعرف إليها تترك جانباً.

هذه الصفات التي تستقل بها المسيرة الفكرية في الغرب هي التي تتقن بها وتتحدد شخصية المعرفة البشرية . فإذا وجدت هذه المعرفة نفسها أمام مأزق من المآزق لم يتردد أصحابها في تخيل حل أو في وضع اجابة يفترضونها للخروج من المآزق بأي وسيلة . ولا شك أن كتاب " الإرتقاء الإنساني " رغم ما اشتمل عليه من معلومات علية وكشوف مادية تحدث عنها بإسهاب في بعض الأوقات ، هو نموذج من النماذج التي تمثل واقع المعرفة في المجتمعات الغربية .

واذا كنا قد وجدنا في قصة خلق آدم عليه السلام جوابا منطقياً عن جملة من التساؤلات المتعلقة بتاريخ الإنسان الحضاري وبالظروف التي رافقت ارتقاءه فلأن هذه القصة قد كشفت لنا عن طبيعة انسان الحضارة وحقيقة ما أجمع عليه علماء الأحافيز من أن الكائن الإنساني قد وجد في الأرض قبل مليون أو مليوني سنة على التقريب.

المقولة التي طرحتها قصة آدم في القرآن :

أول ما يلفت النظر في القصة القرآنية التي أشرنا إليها قبل قليل هو :

١) أن آدم عليه السلام هو حصيلة خلق مستأنف . والآيات القرآنية صريحة جداً في التعبير عن هذا المعنى إذ تقول : وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة.

٢) وأن آدم عليه السلام جاء على صورة مشابهة لكائنات أخرى سابقة عليه والدليل على ذلك أن الملائكة منذ وقع نظرهم على آدم الذي تقرر استخلافه في الأرض اكتشفوا التماثل بينه وبين هذه الكائنات السابقة ولما كانت هذه الكائنات– كما جاء في تساؤل الملائكة– مفسدة في الأرض وسفاكة فقد عجبوا لما أخبرهم به الله عز وجل.

٣) وقد كان من الممكن ألا تتساءل الملائكة مندهشة عن معنى خلق آدم عليه السلام لولا أنه خلق ليكون خليفة في الأرض كما ورد في كلام الله عز وجل . ومن حقهم في بادىء الرأي أن يتساءلوا مندهشين لأن الخلائف في حاجة إلى مواصفات ما كانت متوفرة في الكائنات السابقة تلك التي لا يختلف شكل آدم عنها.

٤) والجدير بالذكر أن تساؤل الملائكة كان طبيعياً جداً فهو لم يغضب الله عز وجل وكان الجواب الالهي اعلاناً عن أن آدم يتميز في جوهره من الكائنات السابقة . فهو يملك قدرات لم تكن متوفرة عند المخلوقات السابقة عبر عن هذا قوله عز وجل : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . " يقصد ان كنتم صادقين في التهمة التي وجهتموها إلى هذا الكائن الجديد".

٥) وقد فوجيء الملائكة بسؤال لا يجدون جوابا عنه لكن الله أجابهم بقوله متوجها إلى آدمنفسه : " يا آدم أنبئهم بأسمائهم . " فاذا فعل آدم ما أمر بفعله قال الله عز وجل : " ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .".

٦) هذا وقد أراد الله عز وجل أن يعين القيمة الحقيقية لهذا الكائن الآدمي الجديد وأن يحدد الفرق النوعي الهائل بينه وبين المخلوقات السابقة عليه فقال عز من قائل : " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ...".

هكذا تكون قصة الخلق قد وضحت تمام الوضوح وتبين للملائكة بطريقة حاسمة أن هذا الكائن الجديد ذو نوعية مختلفة تماما عن النوعية التي كانت لمخلوقات مشابهة له سابقة عليه.

ففي قصة خلق آدم عليه السلام رفض كلي لنظرية التطور التي نادى بها تشارلز داردين والفريد راسل في أواسط القرن التاسع عشر . هذه النظرية التي عجزت ولا تزال عاجزة عن تفسير ظاهرة استمرار مخلوقات ما قبل آدم عليه السلام محتفظة بصفاتها لمدة مليون سنة على الأقل والتي ينسبها إليها صاحب كتاب " الإرتقاء الإنساني " الدكتور جاكوب برونوفسكي الذي صدرت ترجمته العربية عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

ولو كانت نظرية التطور التي لجأ إليها الدكتور برونوفسكي صحيحة لوجب أن تعطينا تفسيراً لتحول هذه البهيمية التي استمرت مليون عام إلى انسانية قادرة على التعليم والإبداع والتعامل الواعي مع كل ما حولها ومتميزة بقيم خلقية حققت بها قفزات نوعية هائلة في فترة قصيرة جداً لا تجاوز اثنى عشر ألف عام فقط .

****

أما تفصيل هذا العجز في نظرية التطور فهو موجود في النظرية نفسها التي تقرر بأن الحياة قد بدأت بحيويين ذي خلية واحدة . وأن هذان الحيويين قد أخذا يتكاثران ماديا وتنعقد علاقة خلاياهما بعضها مع بعض ثم ينتج عن هذا التعقيد تخصص في الخلايا المتكاثرة على نحو يوحي بوجود نظم دقيقة تستوعب تحركات الملايين من الخلايا في الجسد الواحد .

ومما يدعو إلى الإستغراب أن يستقبل القائلون بنظرية التطور وتفرع كائنات عليا من الكائنات الدنيا كما لو أنها حقائق مشهودة . ثم لا يجدون ضيرا في القول بهذه النظرية رغم عجزها الفاضح عن تبين أسباب الارتقاء المزعوم للكائن الخلوي الأول.

ولو قبلنا هذه النظرية لكان معنى ذلك كما يقول الشاعر أبو العلاء المعري " ليست لنا عقول ".

****

وتتكرر مأساة الفرضيات الخاصة بالتطور حين ننتقل من الكائن الذي قضى مليونا أو مليونين من السنين على مستوى البهيمية إلى الكائن الانساني الذي ظهرت عنده ملكات الابداع والتخيل وثبتت في أعماقه قيم خلقية متحررة من الغرائز العمياء.

هذه النقلة لا يجد صاحب كتاب " الإرتقاء الانساني " تفسيراً لها غير كلمة " ظفرة " وهي كلمة لا تعني شيئا غير اعتراف بالجهل ومحاولة فاشلة لتجنب مواجهة الحلقة المفقودة كما يقولون بين الكائن البهيمي القديم والكائن الانساني القادر على الايمان والتفكير والابداع والتخيل.

****

إن الانتصاف للحقيقة التي قررتها قصة خلق آدم في القرآن الكريم يفرض علينا توجيه تهمة صادقة لأصحاب نظرية التطور خلاصتها أن كل ما قيل فيها من فرضيات هو من قبيل الشعراء أو الخيالات المفتعلة التي يقصد بها تغطية العجز عن مواجهة نظرية الخلق المستأنف ولكن المشكلة التي نواجهها ونحن نتعامل مع الذين يفلسفون بعض الوقائع النباتية والحيوانية والانسانية انهم يفتقدون الاحساس الفطري العميق الذي لا يسعه حين يتعامل مع أنواع المخلوقات الا أن يعترف بوجود خالق غالب على أمره قادر القيام بعملية الخلق المعجزة.

والسبب في فقدان هذا الاحساس الفطري هو ما يسمى عقدة " الحضارة العلمية " التي نشأت على أثر الصراع الدموي والفكري بين روادها الأولين وبين نظام ديني متمثل في كنيسة رفضت مبدأ حرية التفكير وأصرت على احتواء الانسان بأن أغلقت أمامه كل نوافذ المعرفة والتقدم .

وقد زادت الغربة بين أصحاب هذه الحضارة وبين ما يسمونه الفكر الديني المزعوم عندما استطاعت هذه الحضارة أن تحقق انجازات مادية نبحث عنها ثروات ضخمة ونشأت في ضوئها التكنولوجيا المعاصرة التي منحت أصحابها قدرات مادية ضخمة.

****

ومن الطبيعي أن يتعذر على أصحاب هذه الحضارة التكنولوجيا الاعتراف بأنها لم تحقق أي خطوة حقيقية في الطريق إلى المعرفة التي يطمح الانسان إلى الحصول عليها.

إن التكنولوجيا المعاصرة لم تستطع رغم كل انجازاتها أن تجيب عن الأسئلة الخالدة التي لا تزال تنتظر من يأتيها بالاجابات الحاسمة المطلوبة.

" اين كنا ؟ ..... وإلى أين المصير .؟ ..... وكيف نستطيع أن نصدق أن كل هذه المخلوقات قد وجدت صدفة ؟ولماذا وجد الانسان ؟ وكيف نضع بديلا عن عقيدة الخلق ؟

بل هناك اسئلة أقل شأنا لكنها خطيرة جدا من مثل : ما هي العلاقة بين العقل والدماغ ولما يتميز الانسان بحرية الفعل أو الارادة ؟ وكيف تستطيع الصدفة أن تحقق الاتساق بين مليارات ومليارات الأجزاء التي تتألف منها الكائنات والتي تستمر بفضلها قائمة موجودة ؟

****

ولو عقلنا قليلا وتحررنا من عقدنا النفسية ومن الغرور الأعمى الذي يقودنا إلى متاهة ضائعة الحدود لتبين لنا أن عقيدة الخلق هي وحدها الاجابة عن كل التساؤلات المعجزة المحيرة.

يبقى أن نناقش العلاقة بين التطور العلمي وارتقاء الانسان وهي العلاقة التي ناقشها الدكتور جاكوب برونوفسكي صاحب كتاب " الارتقاء الآنساني ".